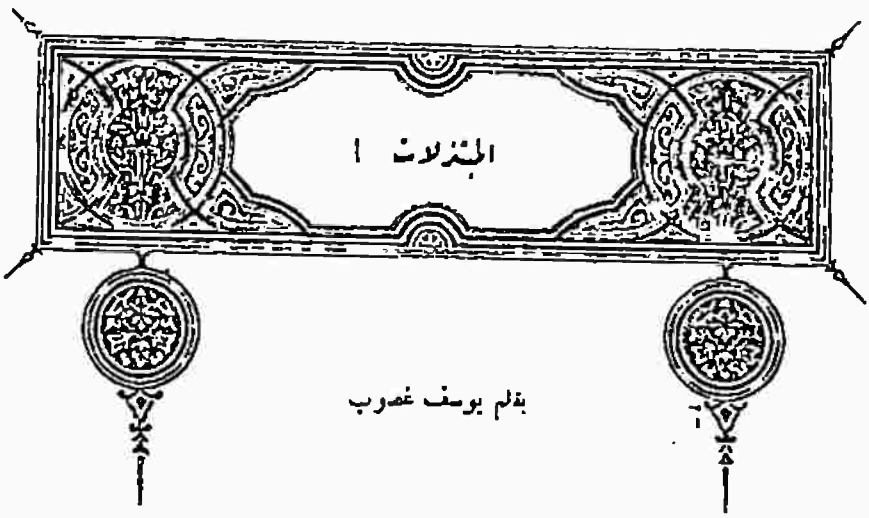

المبتذلات ١

بقلم يوسف غصوب

قد يتوهم القارئ اني حامل على الكتاب والشعراء حملة شعواء لما افرطوا في المبتذل نثرًا وشعرًا حتى جاوزوا الحدّ المباح . لا فما انا والج هذا الباب ، ولا راكب مطية نقدٍ قعودًا سهلة القياد ، بل منشدٌ انشودة الشكر ، ناشرٌ راية الفضل لهذه « المبتذلات » التي تحفّ بنا من كل جانب ، وتغمرنا بخيرها وصلاحها ، كما يحفّ بنا الاثير ، ويحفظ فينا الحياة فيجدّدها كلما رثّت او تغيّرت .

كنت في نزق الصبا اتذمّر من كل حديث خلو من لذة او فكرة يتمتع بها القلب او يرضاها العقل ، فكنت أتأفف واحاول الهرب والاعتزال ، بعيدًا عن المخاطبات الجوفاء ، والمناقشات المجفاء . ثم لما اضطررت الى الاخذ والعطاء والتعامل مع الناس اخذت هذه الكراهية للمبتذل من كل شيء تخف وتتضاءل حتى اضمحلت ، وتركت مكانها عاطفة رأفة ، ثم ميل ، ثم مودة لهذه التوافه العادية التي تعترضنا في كل خطوة نخطوها ونسمة نتنشقها .

ليس الابتكار مما يقرب تناوله في كل حين ، والتمتع به في كل لحظة . فهو اعزّ من عنقاء مغرب ، واثمن من الجواهر النادرة ، فمن جعل دأبه السعي وراءه حمّل قلبه همًّا ناصبًا ، ونغّص عيشه تنغيصًا ، وقد لا تجديه « المبتكرات » نفعًا ولا تدفع عنه ضرًّا ولا تسهّل له امرًا . اما « المبتذلات » فانها نعمة الله في ارضه قريبة المأخذ ، سهلة الاستعمال ، تغذّي الاحاديث ، وتقصّر الاوقات ،

وتملأ الجرائد ، وتمدّ الخطباء ، وقد تكون واسطة التعارف بين القلب والقلب وهمزة التقرب من الاغنياء ، ومرقاة الى العظماء ، وطريقاً الى «رجال الساعة» . وانها لتعزّي الحزانى ، وتسلي الايامى ، وتخدع العذارى ، وتحلي الشبان ، وتحيي السهرات في الشتاء ، والنزهات في الصيف ، وتحول دون الضجر ، وتكون عوناً على كتمان الاسى ، وستراً للحقد والضغينة ، وقد تمنع من اثارة العداء بين المتحاسدين والمتنافسين ، وقد ... وقد ...

فلله درّها ما انفعها !

تصوّر ، يا سيدي ، سيّدات مجتمعات في احدى القاعات ، وقد دار الحديث ، وعلت الضجة ، وتطاير الضحك ، وافلتت الالسنة ، فهل يتمكنّ من التعاشر والتآنس لولا الالتجاء الى ما اعتدنه من مبتذلات الاحاديث كالتشكي من الخدم ، والتذمر من الرجال ، والتوسع في كيفية اعداد المآكل والمشارب والمربيات ، والاسترسال في اخبار القبعات والقماطين ، وفي القال والقيل ، وافراغ قلوبهنّ من كل ثقل او سرّ او نميمة ، وقد تتكلم احداهنّ ولا تنتبه الاخرى لحديثها ، فتردّ لها الجواب في موضوع غريب عنه ، وليس في ذلك كبير امر ، فما القصد الا «قتل الوقت» بكل مبتذل من افكار او اخبار . ولو فرض على كل سيدة من المجتمعات ان تبتكر جملة او فكرًا لقضين الوقت في صمت شامل .

دع السيدات واسأل التجار عن احاديثهم مع زبائنهم من نساء ورجال ، فهل في طاقتهم ان يلجأوا الا الى ما اعتادوه من مبتذلات الجمل التحيّية والتبجيلية ، فهم يمدحون فطنة الشاريات وجمال الآنسات وذوق الأمهات ، ويحلفون الاقسام المحرّجة والايمان المغلظة ، ويرددون ذلك كل يوم من صباحهم حتى مسائهم ، ولو عمدوا الى الابتكار في الحديث لما باعوا ولا شروا

خذ الطبقة الراقية من الادباء فهل لهم اذا اجتمعوا على شرب او في حفل ان يخرجوا عن المبتذل من آرائهم واقوالهم ؟

خذ قادة الرأي العام ، واصحاب السلطة والمقامات ، فهل هم يسيرون على

غير ما اختطّ لهم السابقون ! فكلهم يخشى ان يحيد عن الطريق المعبّد ، ويفضل الابتذال على خطر الابتكار .

كل شيء مما يحيط بنا مبتذل . فالحديث مبتذل ، والثياب المبتذلة لولاها لعري الناس ، وان من دعاها في لغتنا الكريمة « بذلات » ، فانه ، ولا شك ، قد نظر الى هذا المعنى فيها .

اما المبتذل من البناء فهو في جميع المدن والقرى فلا تكاد تقع العين الا عليه . فبيوت بيروت مثلاً هي على طراز واحد ولم تخرج عن ابتذالها الا قليلاً ، وذلك بعد الحرب . اما قبل الحرب فكانت نسخة واحدة .

والمبتذل من الناس تكاد ان لا ترى غيره . فالبلدان الواسعة الاوجاء المترامية الاطراف تضيق بالرجال العاديين المتساوين في الدرجات الانسانية ، والافكار الشائعة ، والعواطف العامة ، والمخاوف والخرافات والعقائد والعادات ، حتى ان النوابغ منهم لا يطيقون الافلات من المبتذلات . فكم من كتاب وكم من خطبة وكم من مقالة دبّجتها يراعة المشاهير منهم هي مفعمة ابتذالاً ! وكم من قصيدة جادت بها قرائح فحول الشعراء هي دون المبتذل من النظم ! فالمبتذل هو الخزينة العمومية الطافحة الفائضة بالغنى تمدّ اليها الايدي من كل طبقات الناس . فالصعاليك لهم فيها نصيب ، والملوك لهم فيها نصيب اوفر . هي الغنى والسعادة ، هي قوة البلاد ، وحياة العباد .

فلو فرض المستحيل وحظر على الناس التبذل فما اهول الشر وافدح الخطب! فلا سبيل عندئذ للعيش ، ولا للتعامل ، ولا للاجتماع ، ولا للحديث . فكم من سيدة تقفل باب قاعتها ! وكم من خطيب يخرس ! وكم من شاعر يصمت ! وكم من كتاب يطوى ! وكم من جريدة تصدر بيضاء ! وكم من عشرة تبطل ! وكم من صداقة تحلّ ! وكم من فكاهة تذوي ! حتى انه ليقضى على تسليم الناس بعضهم على بعض . حتى انه ليبتلى القوم بالخرس والصمم والعمى !

فاذا عرفت ذلك ، ايها القارئ الكريم ، فافض بالحمد لله على هذه المنة ، واشكره كثيراً ، وانظم المدح اشكالاً والواناً في تقريظ « المبتذلات » ، ولا تقتصد ولا تبخل بما عندك من الفاظ طنانة واوزان رنانة فانها لا تذهب

سدى.

***

اما اذا هلّلنا لهذه النعمة في الحياة الدارجة والمعاملات والمجاملات ، فيحق لنا ان نكون اشد تطلباً واصعب مراساً عندما نحاول ان نخرج طوعاً من عالم « المبتذلات » الى عالم ارقى واشرف ، فنأخذ مثلاً ديواناً من الشعر او قطعة من الموسيقى ، او صورة من الصور ، لتحول مجرى حياتنا ولوقليلاً وتغذي نفوسنا بغير هذا الطعام العادي ، فيجب على الاقل ان لا تكون هذه الآثار التي نمنحها ثقتنا فارغة كل الفراغ من شيء مبتكر غريب يثلج الصدر ويكون لنا مكافأة على محاولتنا ترك حياتنا الهادئة المستكينة المبتذلة ، واقتحامنا المتاعب والعقبات للاشراف على شيء جديد.

وما نحن بالطامعين كثيراً ، بل نرضى ان نرجع من جولتنا بالشيء اليسير، بالفكر الواحد من كتاب ضخم ، بالبيت الواحد من قصيدة مثوية ، بالصورة الواحدة من معرض تصوير ، بالنغمة الواحدة من مقطوعة . ولكننا كم رجعنا بعد طول العناء بخفي حنين !